حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي

معربة بقلم المعلم رشيد الخوري الشرتوني (تابع لما سبق)

وكانت راحيل تسمع كلام الشيخ راقنةً و بصرها متّجه الى ما وراء مياه البحيرة من قمم جبال عكار التي خلفها كان القمر يطلع بطيئاً. وما كان غير قليل حتى افاض الكوكب الدري امواج انواره على الجزيرة والبحيرة معاً فما كان احسنها ليلة نقيّة الأديم تألقت نجومها وتقاربت كواكبها حتى كاد الناظر لا يبصر السماء من ورائها الّا كرُقعةٍ من السنجوني تخرقها قنّة من ذهب

وكانت محاسن الطبيعة المادية قد تصرفت بلبّ راحيل وفتنت عقلها فلبثت صامتةً واخذت هذه الساعة ولكن دون مقاومة تجيل في فكرها كلمات الاب يوحنا واحدةً بعد واحدةٍ ثم هتفت قائلةً « صلّي من اجلي يا ابي حتى يرزقني الله القوّة والايمان »

— نعم سأُصلي على هذه النيّة حتى تكوني سعيدة

— حتى اكون سعيدةً ! قالت هذا بصوت متألم حاسبةً ان الاب يوحنا يتهكم عليها

— نعم حتى تكوني سعيدةً في مصابك ودموعك

— كلّا يا ابي ما بقيت لي سعادة في هذه الدنيا فالسعادة لفظة يجب ان تُحذف من كتاب حياتي ثم تبسّمت تبسُّم مرارة وحرقةٍ وقالت: لا سبيل حتى اكون سعيدة. ألا تعلم انك تبغي المستحيل بطلبك مني ان اكون سعيدةً

— اعلمي يا راحيل اني استطيع بل يجب عليّ ان اطلب منكِ كل شيء. فاني لا اظنك امرأة اعتيادية بل اعتقد فيكِ مقدرةً على فهم لهجة الايمان بل على اتيان اسمى الاعمال وانبل الضحايا. ولكِ نفس مستقيمة نقيّة بالرغم عما فيكِ من عتوّ واصرار فاسلكي بجزمٍ في الطريق الضيقة التي تنفتح لكِ وبركة الحبيس وصلواته ترافقكِ

— ما احسنك يا ابي

– ان الله تعالى هو احسن بما لا نهاية له

ولما عادت الى البترون دخلت في حجرتهـا فتحت كتاب الاقتداء بالمسيح فوقع بصرها على فصل عنوانه « اربعة أمور تأتي بالطمأنينة التامة وهي اجتهد في ان تعمل مشيئة الآخرين لا مشيئتك. كُنْ دائماً الى احراز القليل اكثر من الحصول على الكثير اطلب دائماً المقام الاخير واخضع للكل. توسّل دائماً حتى تكمل مشيئة الله فيك. . . »

ولم تقرأ راحيل غير ما تقدم ايراده فخرّت جاثيةً وغطت رأسها بيديها وبكت طويلاً

١٢

وكانت دموع راحيل كإقرار بالضعف البشري تجاه سمو الكفر بالذات الذي وضح لها من خلال هذه السطور المرعبة بالرغم عن بساطتها. وكانت في الحقيقة تتوقع شيئاً آخر فقد حسبت انها تفوز برضاة قلبها في حب حلال وشرعي غير ان مطلبها بشري محض ومن ثم جاء ثقيلاً عليها ما كلفها به الحبيس من تضحية اعزّ امالها

ولا نعلم هل اقترح الاب يوحنا عليها ما اقترحهُ عن فرط يقين بشجاعتهـا وعزّة نفسها او عن قصد ارشادها الى ما يفوتها من الفضائل ؟ بل غاية ما يُعرف من خبرهـا انها استمرّت تتذمر من العناية الالهيَّة مع انهُ كان الواجب عليهـا في تلك الساعة نفسها ان تقدم أحرّ الشكر لله على نجاتها من اعظم الاخطار

علم القارئ مما سبق بيانهُ ان عبد المنعم مقدّم جبيل كان قد تواطأ مع بعض الخوّنة في قصر البترون على ان يبلّغوا اليهِ كل حادث يجري هناك فبواسطتهم اطلع على سرّ النفرة بين راحيل وزوجها وعرف باسفارها الى زيارة حبيس البحيرة فعقد النيَّة على ان ينتفع من هذه المعلومات و يرضي شهواته الدنيَّة باختطاف زوجة مقدم البترون

وبالنظر الى ما يترتب على مسألة كهذه من عظيم المسؤولية والتبعة لم يشأ ان يباشرها بنفسهِ مخافة ان تجرّ عليهِ خطراً كبيراً ولمّا كانت بينهُ وبين جوسلين مراسلة متتابعة منذ مدة من الزمان على يد رجل يهودي من طرابلس وهو الذي سبق الخبر عن قيامهِ في فناء قصر بشراي يوم حضور الاب يوحنا اليهِ انتهز المذكور هذه الفرصة

فاخذ يشجع جوسلين على معصية الامير رزق الله وشقّ عصا الطاعة لهُ. وعزم هذه المرّة ايضاً على ان يستخدمهُ لاتمام مقصده السيء.

وما كاد يفاتحهُ بالمسألة حتى لاقى منهُ اقبالاً وقبولاً دون ادنى تردُّد. وكان جوسلين يقصد ان يختطف راحيل لنفسهِ ويتظاهر لعبد المنعم انهُ يفعل كل شيء لمرضاتهِ. وكان يعلل نفسهُ انهُ متى وقعت راحيل في يدهِ تصير عنده بمثابة رهينة نفيسة يوم يأتي الامير رزق الله ويسألهُ حساباً عن مسلكهِ. على ان مقدم جبيل مع ما هو معروف بهِ من الخبث والدهاء قد لاقى شخصاً أدهى منهُ وأحيل ولسوف يتعلم ان المواطسات المبنيّة على الجريمة والاثم معرّضة للخدائع وأنواع المكر. ولو لم يجملا الغرض هدفاً لغرضهما السيء لسرّنا مشهد هذين الماكرين كيف ان كلاً منهما يسعى في خديعة الآخر

مرَّ الكلام على خبر مواجهة راحيل لحبيس البحيرة ونقول الآن ان عبد المنعم لمّا عرف بواسطة موقّتيهِ اليوم المعين للسفر بادر في الحال فانفذ رسولاً الى جوسلين الذي من فورهِ اخذ ما يلزم من التدابير واستدعى بعض الاشداء من رجالهِ ووكل اليهم اختطاف المسافرة النبيلة

فكان انهُ ليلة خرجت راحيل من البترون يصحبها خادمها موسى خرج ايضاً من القاعة خمسة من الخيّالة فساروا الى جهة حمص. وكانت الغيوم قد تلبّدت في الجوّ منذرةً بقرب عاصفة شديدة من العواصف التي يكثر ثورانها في أيام الخريف وكذلك كان هزيم الرعود يملأ الفضاء ولم يكن يظهر في الوقيع شيء من الكواكب والنجوم لترشد بانوارها خطى السارين

ومع ذلك فقد تيسّر السفر لهذه الشرذمة من الخيالة حتى قرية عين الشمس دون ان يحدث لها شيء مزعج غير انهم لمّا دخلوا الغاب الملتف لم يقدروا على المسير الّا بصعوبة وعناء لان خيلهم كثيراً ما كانت تكبو في الظلمة بسبب الحجارة المُلس التي رُصفت في تلك الطريق (١). وبعد ساعة من الزمان رأوا مع فرط الغم والدهشة انهم تاهوا عن السبيل

---

(١) مجلّة الشرق المسيحي ١٩٠٠

فعزموا في بادئ الامر على التربص مكانهم الى ان يُشرق الفجر ثم عدلوا عن هذا العزم خوفاً من وصولهم متأخرين الى ضفاف البحيرة بقرب السدّ الشمالي الذي منهُ تجتاز راحيل الى الجزيرة

اخيراً جزم زعيم تلك الشرذمة بان يرفع صوتهُ مستغيثاً لعلَّ احداً من الرعاة النصيريَّة الذين يبيتون مع مواشيهم في الغاب يسمعهُ فيأتي لنجدتهم. فظلَّ ينادي مدَّة طويلة ولم يسمع جواباً غير انهُ في الاخير حضر رجل ملتحف بفروة غليظة من جلود الغنم كما يفعل حتى الآن كثيرون من رعاة الماشية فاول ما شاهدهُ الزعيم قال لهُ بصوت جافٍ:

— انت ناظر حالتنا وقد ضللنا الطريق فعليك ان تخلصنا من الارتباك وتوصلنا حالاً الى طريق حمص دون تأخير

اما الرجل المجهول فلم يبادر الى الجواب وبعد ان تفرَّس في وجوه الخيَّالة قال:

— اي والله انكم مستعجلون كثيراً ولكن انبهكم قبل كل شيء. انكم تغلطون في استعمال الكلام الجافي مع رجل تطلبون منهُ النجدة والاسعاف. واني اودّ من صميم قلبي ان اقدم لكم خدمةً وقد برهنت على حسن استعدادي بان تركت قطيعي واتيت ملبياً نداءكم. ولكني أُحب قبل الشروع في شيء من ذلك ان اعرف من انتم. فوالله ان الزمان الذي نحن فيهِ قبيح وشنيع ينبغي فيهِ لمن كان مثلي ان يكون دائماً على حذر. ثم انكم خمسة رجال وكلكم مسلحون فاذا كنتم لا تخشون بأساً من راعٍ حقير مثلي فاوغب ان اعرف ايضاً هل استطيع ان اسلِّم نفسي بين ايديكم فقولوا لي اذاً ماذا تريدون ومن اين تأتون

— ماذا يهمُّك امرنا امامنا ولا تسأل عمَّا لا يعنيك

— اي والله من حيث الحال على هذا المنوال لم يبقَ لي الَّا ان اتمنى لكم سفراً سعيداً او ان تُرزقوا رجلاً آخر أبسط مني يدلكم على الطريق. والان اودعكم لان قطيعي يستدعيني

قال هذا وأدار ظهره وهمَّ ان ينساب في الغاب. فلمَّا شاهد الزعيم منهُ ذلك فطن ان الضرورة تستدعي منهُ ان يغيِّر لهجتهُ القاسية فقال:

— ارجع فأُخبرك بما تريد اعلم اننا آتون من القليعة

— هذا ما كنت اريد معرفتهُ وقد علمت الآن انكم في خدمة السيد جوسلين الذي انا من جملة رعاياه فالى اين تذهبون ؟

— الى حمص

— إلى المدينة نفسها ام الى ضواحيها ؟

— نريد ان نعرف اقرب طريق تؤدي الى بحيرة قدس

— فهمت مقصودكم فاتبعوني غير ان طريقكم ستكون صعبة وعرة وفي الوقت نفسهِ خطرة لانكم تبتعدون عن الطريق القويم من زمان

ثم ان الراعي اخذ يسير امامهم وهو ساكت لا ينطق بكلمة . غير انهُ كان مرةً بعد مرة يلتفت الى الخيَّالة ليرى هل يتبعونهُ فكان يشاهدهم متقدمين بعناء لاسيما وان سروج خيلهم وسيوفهم الطويلة كثيرًا ما كانت تشتبك باغصان الاشجار الشائكة القائمة كسياج عظيم على جانبي ذاك الشعب الضيق ولو أراد ان يُتعبهم ويُعنتهم لما امكنهُ ان يُنزل بهم اكثر مما اصابهم من المشقة

وبعد ان ذاقوا أشدَّ المرارة من مسيرهم في شعاب ضيقة وصلوا اخيرًا الى جرف وادٍ عميق فلمَّا همَّ الراعي بالنزول فيهِ صرخ بهِ زعيم الخيالة قائلًا :

— مكانك . لا نريد ان نمشي في هذه الطريق

— والله هذه هي أقرب الطرق المؤدية الى البحيرة

— دلَّنا على طريق غيرها

— والله لا أعرف طريقًا غيرها الَّا اذا ابتعدنا من هنا ثلاث ساعات

— لا بأس فان خيلنا طيبة وعليها نعتمد في ربح ما نخسره من الوقت

— الامر امرك . قال هذا ورجع على أعقابهِ فسار على حواشي الوادي ومشى الخيَّالة خلفهُ يتبعونهُ وكان زئير الرعود يقرب منهم وما طال الزمن حتى بدأت تقع قطرات ضخام من المطر وكان الدليل قد أسرع الخطى متنقلًا من صخر الى آخر كأن في رجليهِ اجنحةً للطيران . فتبعهُ زعيم الخيَّالة وهمَّ بندائهِ ولكنهُ كان قد اختفى في الغاب بخفة لا مزيد عليها وجاز ما بين الاشجار الملتفة دون ان يتحرك منها غصن

ثم سار الخيالة بعض خطوات فشاهدوا مشهدًا ارتعدت لهُ فرائصهم خوفًا لانهم وصلوا الى صف من الصخور تشرف على مهواة مرعبة يبلغ عمقها مئتين او ثلاثمائة متر

فانخلعت قلوبهم وتصوروا الهلاك محيطاً بهم لاسيما وانهم شاهدوا فوق هاماتهم صفاً آخر من الصخور فلم يجترئوا على تسلقها بخيولهم في ذلك الليل الدامس

ولا حاجة الى وصف ما احاق بهؤلاء الناس من الرعدة والحيرة لمَّا رأوا نفوسهم محبوسين بين صفين من الصخور لا يستطيعون تقدُّماً ولا تأخرًا ففهموا حينئذٍ ان الراعي قد أضاهم وكان طلوع الفجر قد قرب فاقاموا يتوقعون انبثاقه بفروغ صبر تحت الامطار والرياح. فلمَّا لاح الصباح وكانوا قد تبلَّلوا بالمطر وارتعدوا من البرد وخارت قواهم هم وخيلهم من فرط التعب والمشقة رأوا بخوف وهلع انهم في بلاد الاسماعيليَّة الشهورة سطوتهم ما بين الجبال الشاهقة المشرفة على قلعة مصياد وان المهمَّة التي كُلِّفوا بها قد فاتتهم فبدلاً من ان يختطفوا قرينة مقدم البندون أجأتهم الحال الى الاهتمام بوسيلة تكفل لهم النجاة وكتم وجودهم هناك عن أعين سكان الناحية

ومن يا ترى كان هذا الراعي المجهول الذي أضلَّهم الطريق واي شيء حملهُ على ذلك ؟ هل كان ذلك على سبيل الاتفاق ام ان العناية الالهيَّة الساهرة على البرارة واهلها هي التي ارسلت في تلك الليلة نفسها الراعي عبد الله صنيعة الاب يوحنا ؟ كان الراعي المذكور متمدداً على الحضيض وهو ملتحف بفروة ضخمة من جلود الغنم كما تقدم الكلام ومعهُ كلبان كبيران اتخذهما رفيقين امينين في ذلك الغاب وفيما هو نائم سمع صريخ الاستغاثة فما بالى لهُ في بادئ الامر غير انهُ لمَّا اشتدَّ الصوت هبَّ من نومهِ فسار الى الحيَّالة السابق خبرهم فلمَّا علم انهم آتون من القلعة وقاصدون بحيرة قدس ظنَّ انَّ جوسلين أرسلهم لاتيان جريمة جديدة ضد الاب يوحنا المحسن اليهِ وحينئذٍ اضمر لهم الشرَّ

وكان عارفاً بمحبَّة امير مصياد لحبس البحيرة فعمد الى تضليل رجال جوسلين واغتنام الوقت الكافي لتنبيه الامير الاسماعيلي الى المكيدة التي ينسجونها للاب يوحنا

وبناء على ذلك قادهم في طرق وشعاب وعرة حتى انهك قواهم وتركهم اخيرًا في مشارف قلعة الاسماعيليين المشهورة. ثم اخذ طريقًا منحرفة فسار فيها مسرعاً حتى وصل الى القلعة قبل انقضاء الليل

غير ان تدخل الامير الاسماعيلي لم يعد وقتئذٍ ضروريًا لانَّ الحيَّالة المذكورين اصابهم من الخجل والفشل وقلق الفكر ما جعلهم يغبطون نفوسهم على تمكنهم اخيرًا من الاهتداء الى طريق القلعة التي انتهوا اليها في اليوم الثالث لخروجهم

اما الراعي عبد الله فسوف نراه في سجون القليعة حيث يزجّهُ جوسلين انتقاماً من اخلاصهِ الصحيح لحبيس البحيرة. والاخلاص صفة جميلة في الناس لكنها نادرة عزيزة وأفضل أنواعها ما قام بهِ رجل حقير تستدعي منهُ حالتهُ ان لا يهتمّ الّا بنفسهِ

١٣

وبينما هذه الحوادث تجري في جهات حمص كان مالك عملاً باوامر سيدهِ قد زايل بشراي ذاهباً في طريق طرابلس وهو ممتطٍ حصاناً ادهم قصير القامة ضئيل الجسم يدعى « الريح » لم يكن احد يعرف شيئاً عن اصلهِ لا مالك ولا غيره بل كل ما يُعلم من امرهِ هو ان زمرةً من التوَر تزلت ذات يوم بالقرب من بشراي فلمّا ارتحلت تركتهُ هناك فشاهده اهالي المدينة ولم يرضَ احد منهم ان يُطعمهُ لكثرة ما رأوا في بدنهِ من الجراح غير ان مالكاً حاجب الامير رزق الله اخذتهُ الشفقة على الحيوان المسكين واتى بهِ الى منزلهِ واعتنى بهِ واخذ يركبهُ في جميع سفراتهِ وجولاتهِ في الجبل

وتعلق « الريح » بمولاهُ الجديد كل التعلّق فلم يكن يطيق اصلاً ان يركبهُ رجل آخر غيرهُ وكم من مرة خلّصهُ بسرعة إحضارهِ من مطاودة الاعداء. وكان مالك اذا اخذهُ التعب في اسفارهِ الطويلة يرخي اللجام على عنق « الريح » مستسلماً الى غريزتهِ فكان اكثر من مرة يتحاشى السير على الطريق العمومية ذاهباً بهِ في الشعاب والمسالك غير المطروقة ولا يلبث مالك ان يتأكّد بعد ذلك انهُ قد جنّبهُ كميناً او خطراً آخر وحاصل الكلام انّ حبّاً صبياً تمكّن بين الفارس وفرسهِ وقد ادّى مالكاً الى عدم الارتياب في ان وجودهُ مرتبط بوجود « الريح » (الباقي للآتي)

مطبوعات شرقية جديدة

غادة كربلاء

من بضع سنوات عُني حضرة الاديب المجتهد جرجي افندي زيدان منشئ مجلة الهلال بتأليف الروايات التاريخيّة. ولهذا النوع من التأليف أخصام وأشياع فاكثر الاولون